الفصل السابع

النبـــــوة

" في هذه البقعة المنعزلة الموحشة كان يقيم وحيدا يؤنسه تفكيره وتامله ،يقلب في صحف نفسه هذه الحقيقة السامية التي كان الله يهيئه لها ليبعثه إلى الناس بها . لم يكن في عزلته وفي وحدته وفي انقطاعه يخاف الجبل ولا الغار وما قد يكون فيهما من وحش أو هوام . أية قوة روحية يهبها الله لمن يتخذ هذا المكان القفر موئلا ! إنها قوة فوق ما اوتي الناس جميعا وفوق ما في العالم كله . لا يؤتاها إلا الذين اختارهم الله لرسالته ورضي عنهم ورضوا عنه "

" وأما الذين يرجعون إلى أنفسهم يتلمسون الحقيقة في أعماقها فاولئك هم الأقوياء حقا ، وهم الذين يقدرون النفس الإنسانية قدرها الصحيح ، والذين يتوجهون إلى القوة العليا التي برأتهم وكان الروح من أمرها يرون فيها الحق لا حق إلا هو ، ويتاملون في خلق الله سنة الله فيه . فإذا اهتدوا اهتدت الإنسانية بهداهم وسعدت برايهم "

د : محمد حسين هيكل – في منزل الوحي

ظلت النبوة في الضمير الإنساني كمعنى مبهم وكفكرة غامضة . وقد وجدت هذه الفكرة وهذا المعنى حينما أدرك الإنسان أن هناك عالما آخر غير هذا العالم الذي يعيش فيه ، عالم محاط بالأسرار والغيبيات لا يستطيع أن ينفيه ، كما أنه ليست معه البراهين والدلائل لإثباته . ومن جانب آخر هناك في عالمه المعاش ألغاز وطلاسم لا يجد لها حلا . وأسئلة لا يجد لها إجابة . وفوق هذين العالمين هناك القوة المهيمنة والمسيطرة والمتحكمة في كل شيء . حتى فيه هو .وهذه قضية أخرى أرقته طويلا .

عالم معاش حافل بالألغاز والطلاسم .

عالم غيبي لا يعلم عنه شيئا سوى إحساس مبهم بوجوده.

قوة مهيمنة على الوجود ، سواء ما يخص العالم المعاش أو العالم الغيبي

وأمضى الإنسان زمنا طويلا حائرا متخبطا ضالا . وبمرور الوقت تزداد رُغبته في المعرفة والفهم ، وتزداد تلك الرغبة إلحاحا ؛ لأن الأمر متعلق بمصيره وبمكانه في الكون ، وحقيقة هذا الكون ، ومن وراء هذا الكون .

وكان لابد من إرضاء وإشباع تلك الرغبة بشكل أو آخر . فندبت الإنسانية أو تطوع أنواع من البشر ، إما لأنهم كانوا يتميزون بقدرات خاصة ومواهب غير طبيعية ، أو لأن الجماعة الإنسانية قد خلعت عليهم تلك الصفات والقدرات ، وهم الكهنة والسحرة والشعراء .

فالكاهن - بالنسبة لهم - يخترق حجب الغيب ويخبرهم بما سيحدث مستقبلا أو يقوم بتفسير بعض الظواهر الغامضة .

والساحر يسيطر على قوى الشر حولهم ، أو يسخر قوى الخير فى خدمتهم .

والشاعر يؤثر فيمن حوله ؛ لأنه يملك الكثير من المفاتيح وأهمها الكلمات .

إلا أن كل هؤلاء لم يكونوا على مستوى الرغبة النبيلة والحاجة المقدسة التى انتدبتهم الإنسانية لتلبيتها ، فلم يقدموا للإنسانية شيئا ، بل كانوا بمثابة عبء وحمل ثقيل على ضميرها .

وكان من المتوقع أن تطرح الإنسانية فكرة أن يكون هناك من يتصل بطريقة أو بأخرى بعالم الغيب ، ولكن لأن مسألة العقيدة أو الإيمان غريزة ممتدة حتى جذورها فى عمق الضمير الإنسانى ، فإن الإنسانية لم تتخل عن فكرة شخص ينقل لها أو يوصلها بأخبار وأنباء الغيب ، سواء فيما يخص الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، وظلت متعلقة تعلقا قويا بهذا الأمر .

ولا ندرى كيف توصلت الإنسانية إلى أنه لا يصلح أن تنتدب أحدا لهذه المهمة ، أو يتطوع أحد بنفسه ، وإنما الذى يتولى الإختيار هو من يمت للعالم الآخر بصلة ، أو الذى ينتدب هذا الشخص هى القوة المهيمنة والمسيطرة على الكون والوجود ؛ لأنها ستختار الأصلح لهذا الأمر ولأنها – أيضا – هى التى ستعطى وتمنح وتهدى وترشد . وربما وصلت إلى قناعة واقتناع بخصوص هذا الأمر لأنها وجدت من الصعوبة التفرقة بين النبى ومدعى النبوة ، ولا ندرى هل ظهر أولا أنبياء صادقون ، ثم ظهر بعد ذلك مدعو النبوة ، أم ظهر أولا مدعو النبوة ثم الأنبياء الصادقون بعد ذلك ؟

التاريخ لا يحدثنا عن ذلك بشى ـ ـ ـن إليه . " يحيط بتاريخ النبوات كثير من الغموض ، فإن من أشتهر منهم فى التاريخ العام ، وعرفت سيرهم ، وضبطت تواريخهم ، عدد لا يذكر بجانب من لم تعرف أسماؤهم ، ولم تصلنا أخبارهم . وقد دلت العلوم الاجتماعية على أن الجماعات البشرية فى جميع أدوار وجودها صدرت فى حياتها الدينية عن تعاليم مقررة أفضى بها إليها رجال منها ، أطلقت عليهم ألقابا مختلفة من كهننة وبطارقة وموابدة ومعممين ، بل وآلهة وأنصاف آلهة ظاهرين بأجساد بشرية ألخ ، ولكن بسبب الظلمات المسعة على تواريخ تلك الأمم

لم تعرف أسماء أكثرهم ، لم يمكن نقد ما أتوا به من التعاليم ، وتقديرها قدرها من الناحية الفلسفية وتمييز من يصح أن يحشر منهم فى زمرة الأنبياء ، لسلامة تعاليمهم من ضلالات الوثنية ، ومن يتعين الزج بهم فى قبيل الدجاجلة والمشعودين ، وطلاب السلطان والمال باستغلال جهل الجاهلين ، ليس هذا موطن تحقيق تاريخة لتمييز الصادقين من الأنبياء الكذبة ، ولكننا نلفت نظر القارئين إلى حقيقة ذات دلالة بعيدة المدى وفى فهم مرمى العاطفة الدينية ، وهى أن العالم كله متمدنه ومتوحشه ملتف حول النبوة فى جميع مظاهرها ، لا تشذ منه جماعة فى أى عهد من عهود التاريخ ، فأينما أجلت بصرك شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا إلى القرن العشرين ، وفيما قبل التاريخ ، فلا تصادف غير أمم وشعوب وقبائل معولة فى توفية أخص حاجاتها الروحية على النبوة ، فهل هذا التعلق الشديد بالنبوة أثر من آثار السذاجة الإنسانية الأولى توارثها الأجيال فأصبحت حاجة نفسية لابد من توفيتها على حال من الأحوال ؟ "[٩٨].

○ بضاعة الأنبياء

وبارتقاء الفكر الإنسانى ، والاحتكام إلى الضمير اليقظ ، أمكن التفرقة بين الكاهن والساحر والشاعر وبين النبى ، وكذلك بين النبى ومدعى النبوة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان النبى نفسه يحمل معه الدلائل والبراهين التى تؤكد وتبرهن على صدقه ، فهو لديه شهادة اعتماد من السماء .

وبدأ الأنبياء يتوالون تترى ليمارسوا دورهم الهام والخطير ، ويؤدوا مهمتهم المقدسة ، وبدأ التاريخ الحق للإنسانية منذ بدأت تلك الزمرة المباركة تتعامل مع الإنسانية والإنسانية تتعامل معهم ." ماذا حمل الأنبياء للأمم من التعاليم ، وأى شيء أفادوه المجتمعات المختلفة فى خلال العصور ؟ إن بضاعة الأنبياء معروفة فى كل زمان ومكان ، وهى تلطيف خشونة الطبيعة البشرية ، وقهر ميولها البهيمية

٩٨- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة – محمد فريد وجدي – صفحة (٦٦)

، وإدخالها فى حدود الاعتدال وتوجيه الشخصية الإنسانية وجهة الخير ، والسمو والصلاح وذلك بلفت نظر الناس إلى أن للكون صانعا قديرا حكيما وأن لهم روحا قدر لها الخلود فى حياة بعد هذه الحياة ، وإن العدوان الذى يرتكبه الإنسان فى حياته الأرضية ضد الآداب والحقوق الخاصة والعامة ، يحاسب عليه فى تلك الحياة ، وقد دان الناس كلهم لهذه العقائد حتى لم يصادف قديما ولا حديثا أمة بغير دين ، فعلام يدل هذا العموم والشمول حتى والإنسانية فى أحط الأدوار ؟

ألا تدل على أنها مطبوعة على الانعطاف إليها ؟ وهل فى الدين إلا واجبات وتكاليف وتضحيات ؟ فلو كان الإنسان طينا محضا لما هوى إلى هذه التعاليم ، وللفظها كما يلفظ كل ما لا يشعر بميل فطرى إليه "[٩٩]

والنبوة بمثابة الجسر الذى نعبر من خلاله لنتعرف على ملامح وسمات العالم الآخر ، أو نصل إليه من خلاله ، وما يترتب على تلك المعرفة والعلم من إلتزامات وواجبات دينية وأخلاقية ، بدون هذا الجسر أو الباب ، الإنسانية تعيش فى ظلام وضلال وحيرة أبدية ، ويختم على سمعها وبصرها وقلبها ، ولا تأتى بخير أينما توجهت .

ولكن ما معنى النبوة ؟ وهل هى أصيلة - معنى ومبنى - فى اللغة العربية أم مستعارة من لغة أخرى وبيئة أخرى .

" كلمة النبى عربية لفظا ومعنى .

عربية لفظا لأن مادة النبأ والنبوة أصيلة فى اللغة .

وعربية معنى ، لأن المعنى الذى تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة فى اللغات الأخرى : فهى تجمع معانى الكشف والوحى والإنباء بالغيب والإنذار والتبشير وهى معان متفرقة تؤديها اللغات الحديثة بكلمات متعددة ، فالكشف مثلا تؤديه فى اللغة الإنجليزية كلمة RVELATION والوحى تؤديه كلمة INSPROTION

٩٩- المرجع السابق - صفحة (٦٩ - ٧٠)

واستطلاع الغيب تؤديه كلمة DIVINOTION أو ORACLE ولا تجتمع كلها فى معنى كما تجتمع فى هذه الكلمة باللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التى لا تلتبس فى الألسنة الأخرى عند أصل التسمية واشتقاق المعانى الجديدة من الألفاظ القديمة .

فكلمة النبى التى تدل على معنى واحد لا تدل على غيره ، خلافا لأمثالها من الكلمات فى كثير من اللغات . والعبريون قد استعاروها من العرب من شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائى والناظر ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار " [١٠٠]

ولأن معنى النبوة ثرى وشامل فلها أكثر من مدلول ، فهى تدل – أيضا – على الرفعة وعلو الشأن وعظيم الأمر وجليل القدر " النبى فى اللغة العربية وصف من النبأ وهو الخبر لما له شأن مهم ، ويصح فيه معنى الفاعل والمفعول لأنه منبئ عن الله ومنبأ منه ، والنبى بالتشديد أكثر استعمالا ، أبدلت الهمزة ياء ، أو هو من النبوة وهى الرفعة والشرف ويطلق عند أهل الكتاب على الملهم الذى يخبر بشيء من أمور الغيب المستقبلة وقيل إن معنى أصل مادته فى العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهورى مطلقا أو فى الأمور التشريعية وهو عندنا من أوحى الله إليه وحيا فإن أمر بتبليغه كان رسولا " [١٠١] .

١٠٠- إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – صفحة (١٥١)
١٠١- الوحى المحمدى – محمد رشيد رضا – صفحة (٢٥)

○ كيف يكون الإنسان نبيا ؟

يكون الإنسان نبيا بأن يكلمه الله ، ويعلمه أنه نبي ، ويبدأ النبى فى تلقى الوحى ، وتلقى ما يأمره الله بتبليغه إلى الناس " النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون واسطة العقل والحواس على ضروب شتى إما إلقاء فى الروع ، أو بتوسط ملك يتمثل فى صورة بشرية أو فى أثناء النوم على حالة رؤيا ، أو غير ذلك من الحالات الروحية التى لا يدركها غير نبى ، ويسمى هذا الأسلوب التعليمى المخالف للسنن العادية وحيا .

هذه النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ويسمى نبيا ، وقد تكون مقترنة بتكليف تقويم أود جماعة من الناس ، فيسمى هذا التكليف رسالة ، ويدعى صاحبها رسولا ، وقد سجل تاريخ البشر أسماء عدد كبير من الأنبياء ، ومثله من المرسلين فى جميع أدوار الإنسانية " [١٠٢] .

ومنذ إعلام النبى بمهمته تتعهده العناية الإلهية بالعلم وإرشاده إلى السبل التى يجب إتباعها فى الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته " وقد أجمع هؤلاء الأنبياء والمرسلون على أنهم يتلقون معارفهم من طريق الوحى ، وإنما يدلون إلى الناس بما أمروا أن يدلوا به إليهم ، وأوصوا بالثبات عليه ، والاستمرار فيه ، وإن غضب الناس منهم ، وتألبوا على اضطهادهم ، وقد أوذى وقتل منهم عدد كبير ، وأوبتلوا قبل قتلهم بجميع ضروب المثبطات ، فلم يزدادوا إلا إقداما ومضيا " [١٠٣] .

إذن الوحى هو الخط الفاصل بين النبى وغيره من البشر ، فالنبوة والوحى متلازمان من ناحية ومنفكان من ناحية أخرى ، فلا نبى بدون أن يوحى إليه ولكن يوجد الوحى ولا يحتم أن يكون الموحى إليه نبيا . " فالقول الجامع فى معنى الوحى أنه الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره .

١٠٢- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة – محمد فريد وجدى – صفحة (٤٥)
١٠٣- المرجع السابق – صفحة (٤٥)

ومنه الإلهام الغريزى كالوحى إلى النحل وإلهام الخواطر بما يلقيه الله فى روع الإنسان السليم الفطرة والطاهر الروح كالوحى إلى أم موسى . ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان قال تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾ الأنعام: ١٢١

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ الأنعام ١١٢

ووحى الله تعالى إلى أنبيائه قد روعى فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة . فهذا معنى المصدر . ويطلق على متعلقه وهو ما وقع به الوحى أى اسم المفعول . وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم . ومنهم من أعطاه كتابا أى تشريعا يكتب ومنهم من لم يعطه .

والله تعالى يوحى إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الأنفال: ١٢ ويوحى إلى ملك الوحى ما يوحيه الملك إلى الرسول كقوله : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ النجم ١٠

أى أوحى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ . وقال شيخنا الأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد بعد تعريف الوحى لغة ((وقد عرفوه شرعا أنه إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة . والأول يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى . وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور)) .

هذا التعريف يشمل أنواع الوحى الثلاثة الواردة فى قوله عز وجل :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ الشورى: ٥١

فالوحى هنا إلقاء المعنى فى القلب ، وقد يعبر عنه بالنفث فى الروع – وهو بالضم القلب والخلد والخواطر – والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة . وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحى المرسل من الله إلى رسول الله فيراه متمثلا بصورة رجل أو غير متمثل ويسمعه منه أو يعيه بقلبه " [١٠٤] .

- **مراتب الوحى :**

لرسول الله خصوصية تميز بها فيما يخص الوحى ، فلم يكن الوحى بالنسبة له درجة واحدة أو مرتبة واحدة ، وانما تدرج من صورة بسيطة حتى وصل إلى أعلى وأصعب الدرجات ، حتى أن الرسول كان يعانى معاناة شديدة – كما لحظ المحيطون به – أثناء مروره ببعض تلك المراحل والمراتب ، مع أن تكرار نزول الوحى كان من المفروض إلا يسبب له هذا الإجهاد والمشقة لرسول الله ، من ناحية أنه أصبح شيئا مألوفا ومعتادا ، وأن كيانه قد مرن على هذا الأمر ، إلا أن الواقع غير ذلك ، ففى كل مرة كان يتنزل الوحى على رسول الله على مدى الثلاث والعشرين سنة ، كان نزول الوحى على الرسول يمثل إجهادا وارهاقا ، ذلك أن نزول الوحى لم يخرجه عن بشريته ، ولم يزد فى طاقاته أو قدرة احتماله كبشرى ، وأن يلتقى به الملك على أى صورة من الصور ، أو يتنزل عليه الوحى على أى درجة من الدرجات ، كان يسبب له الكثير من التعب والمعاناة ، معاناة جسمية ونفسية وعقلية وعصبية ، حتى أن الله قد خفف على رسوله ما يجد حينما قال له

١٠٤- الوحى المحمدى – محمد رشيد رضا – صفحة (٢٣- ٢٤)

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ طه: ١١٤

- **ومراتب نزول القرآن على الرسول :**

((أولها)) الرؤيا الصادقة فى النوم .

((ثانيهما)) ما كان يلقيه الملك فى صدره من غير أن يراه .

((ثالثها)) خطاب الملك له حينما كان يتمثل له بشرا سويا .

(رابعها)) رؤيته جبريل فى صورته الروحانية فيأخذ عنه .

((خامسها)) ما كان يلقى إليه بصوت مثل صلصلة الجرس ، وكان هذا النوع أشده عليه فإن جبينه ﷺ كان يتفصد فى أثنائه عرقا فى اليوم الشديد البرد .

وإذا اتفق حصوله وهو راكب بركت ناقته على الأرض ، وحدث مرة أن نزل عليه الوحى على هذا الضرب وفخذه فوق فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليها حتى كادت ترضها . وقد شوهد أنه كان إذا أوحى إليه على هذا النوع أصابته رعدة وكرب ، وتربد وجهه وغمضت عيناه ، ورما غط كغطيط البكر (أى الفتى من الإبل) "[١٠٥] .

ولم يكن يعرف رسول الله زمان أو مكان نزول الوحى ، ولا فى أى حاله من حالاته ، نائما كان أم مستيقظا ، مقيما كان أم مسافرا ، قبل حروبه أو فى أثنائها أو بعدها ، وكان هذا يفرض عليه أن يكون فى حالة استعداد دائم وترقب مستمر كى يتلقى ما يأتى به الوحى ، لذلك كان فى حالة يقظة لا يدركها البشر ، لذلك كان يقول : (إن عينى تنام ولكن فؤادى يظل يقظا) ، فلا نومه كنومنا ، ولا يقظته كيقظتنا ، إن قلبه وعقله ووجدانه دائما موصولون ومعلقون بشيء قد يحدث فجأة ، لا زمان له ولا مكان ولا مقدمات ، ولابد أن يكون فى أعلى درجات

١٠٥- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة – محمد فريد وجدى – صفحة (٩٢)

الوعى والتيقظ وحسن الاستقبال ، لا يغفل طرفة عين عما يلقى إليه ، كل هذا لم يخرجه عن بشريته ، أو لم تتخلى عنه بشريته ، لم تنخفض نسبة البشرية فيه لتعطى مكانا للنبوة ولم تطغى النبوة لتسود وتهيمن على بشريته ، فالرسول كان يعيش بشريته بنبوته ، وكان يعيش نبوته ببشريته ، فقد كان بشرا ، وقد كان نبيا وقد كان بشرا نبيا ، وقد كان نبيا بشريا ، وهنا موطن العظمة في شخصية الرسول ففيها ما تتطلبه النبوة من أعباء وتكاليف وإجهاد وإرهاق ومشقة ووعى ويقظة وفيها ما تستوجبه البشرية من مشاركة الآخرين حياتهم ومشاكلهم وقضاياهم وأحزانهم وآمالهم ، وفيها ما تقتضيه البشرية النبوية من جعل النبوة كالشعاع الذي يتسلل ويتخلل كل مناحي لحياة البشرية ، فيضيئها ويبعث الدفء والحياة والحيوية فيها ، وفيها ماتتطلبه النبوة البشرية من رقى وسمو وارتفاع بالبشرية إلى المكانة والمنزلة التى أرادها الله – عز وجل – للجنس البشرى من تكريم ورفعة .

إذن لم يحدث صراع بين نبوة الرسول وبشريته ، ولم يشتبكا ولم يتزاحما وإنما كان هناك توازن دقيق بين الجانبين ، وهذا التوازن الدقيق لن يتأتى إلا إذا كان الرسول يمارس بشريته من خلال نبوته ، ويمارس نبوته من خلال بشريته، فقد تلبست نبوته ببشريته ، وتلبست بشريته بنبوته ، فإذا نظرت إليه فهو نبي أجل وأعظم وأفضل ما تكون النبوة ، وإذا نظرت إليه كبشر فهو أكمل وأتم وأرقى ما تكون البشرية ، فهما – النبوة والبشرية – ليسا جانبين منفصلين كل منهما عن الأخر ، وإنما امتزجا وتداخلا حتى صارا شيئا واحدا هو قوام شخصية الرسول لذلك ارتقت وسمت بشريته ارتقاءا وسموا عظيما لا نظير له ، حتى تظن أنه نبي خالص ليس للبشرية منه نصيب وقدر ، وتواضعت وتحلامنت نبوته حتى تخال أنه بشر خالص ليس للنبوة منه نصيب وقدر ؛ حتى أن من حوله كانوا كثيرا ما يتعاملون معه من منطلق أنه بشر ، وليس نبيا ، غافلين عن هذا الأمر ، فهم يتحدثون معه كما يتحدثون مع أى فرد منهم ، ويخاطبونه وينادونه كما يخاطبون

وينادون أي واحد منهم . ويدخلون بيوته ويمكثون ويطبلون المكوث ، ويراجعونه وقد يخالفونه أحيانا ، إلا أن القرآن سرعان ما يتنزل وينبه الصحابة أن شخصية النبي لها خصوصياتها وتميزها في أشياء كثيرة . ليس الصحابة فحسب بل النبي نفسه ، لشدة تواضعه وعظيم شخصه ونبل معدنه ، كان كثيرا ما يمارس حياته كأنه إنسان عادى . ليس هناك اختلاف أو فارق بينه وبين من حوله ، وهنا أيضا يتدخل القرآن منبها أنه نبي كي يثوب إلى مكان ومكانة النبوة . مع أنه في حقيقة الأمر لم يفارقها ولم يغفل عنها. ولكن لشدة تواضعه يؤثر أن يعيش وسط من حوله وكأنه فرد منهم لا تفاضل ولا ميزات ولا خصوصيات . ولشدة رحمته يفضل ألا يحملهم عبء ومشقة وإرهاق النبوة ومتطلباتها ، ولرأفته يشفق على من حوله أن يحملهم ويكلفهم ما كان يتحمله ويتكلفه من عبادة وصوم وصلاة .

- تواضع .
- ورأفة .
- ورحمة .

تلك الصفات أو الهبئات لم يكن يتكلفها الرسول . ولكنها كانت أصيلة فى طبعه . هو لا يملكها ، ولكنها كانت تشتمله . وبلغت معه أقصى درجة فى الإمكان أن تبلغها مع إنسان أو نبي .

فهو إنسان متواضع ونبي متواضع .

وهو إنسان رءوف ونبي رءوف .

وهو إنسان رحيم ونبي رحيم .

ولم تنفصل الإنسانية عن النبوة – كما لم تنفصل البشرية عن النبوة – مهما شيء واحد فى شخص الرسول .

إذا فهمنا هذا النمط من الشخصية ، أمكن لنا أن نفهم كل تصرفات وأفعال النبى محمد ، وفهمنا – حقا – النبوة وحدودها ومتطلباتها وأعبائها ومشاقها .

فنحن لا نستطيع أن نتصور النبوة إلا وهى متلبسة بالبشرية ، النبوة ليست معنى مجرد ، أو مفهوم فكرى ، النبوة رجل من لحم ودم وأعصاب يسير على قدمين محمل بمؤثرات وراثية وبيئية وفكرية واجتماعية ، وبين جنبيه نفس تتصف بكل ما تتصف به النفس الإنسانية من آمال وأهداف وطموحات وغرائز وميول . ولكن حدثت عملية تصفية وتنقية وتهذيب لتلك النفس لتستطيع النبوة أن تجد مكانا وتمارس دورها ، والتصفية والتقية والتهذيب لم يخرجوا النفس عن طبيعتها ، فهي نفس بشرية بمعنى الكلمة ، ولكنها ارتقت وسمت وتطهرت من كل ما من شأنه أن يبعدها عن مقام النبوة ، فهذا يتيح للنبي أن يكون معصوما من الخطأ " عصمة الأنبياء فى التبليغ وأداء أمانة الوحى قضية فرغ العلماء منها ، فليس للأنبياء فضل الاختيار فى التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوة واختيارهم لها . وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوة لا مرد لها غير أن الوحى لا يلازم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم ، وفى كل قول يبدر منهم ، فهم عرضة للخطأ ، يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرهم على الخطأ بعد صدوره ، ويعاتبهم عليه أحيانا " [١٠٦]

لا نبوة الرسول ألغت بشريته ، ولا بشريته طعنت فى نبوته أو غضت من شأنها .

النبوة تأكيد للبشرية ، وليست نفيا لها .

حينما يقر القرآن ببشرية الأنبياء والرسل ، وحينما يعترف الأنبياء والرسل ببشريتهم ، هذا معناه أنهم بلغوا حد الكمال البشرى ، وليس حد الكمال البشرى مجاوزة البشرية ولكن معناه أنهم يتصفون بتلك الصفة فى حدها الأمثل والأكمل

١٠٦- حياة محمد – محمد حسنين هيكل – مقدمة الشيخ محمد مصطفى المراغى – صفحة (١١)

وتمكن الصفات البشرية منهم ، لأن معنى اختفاء أى صفة من تلك الصفات – وليست ترقية أو تصفية – هو نقص فى البشرية بل تشويه لها ، وهذا ما تنزه الأنبياء والرسل عنه ، وإذا كان ذلك كذلك ، إذن الخطأ والنسيان والذنب وارد من النبي " جاء فى القرآن والحديث الصحيح ما يفيد صريحه صدور أفعال من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وصف بعضها بأنه معصية ، والبعض الآخر بأنه ذنب ، كما وصف نوع ثالث بأنه خطيئة . وذلك مما يدل على أنهم كانوا يجتهدون وتصدر عنهم أفعال بناء على اجتهادهم دون أن يتلقوا فيها وحيا ، وإلا فلو كانت قد صدرت عنهم بعد وحى إليهم ما صح أن يوجه الله إليه لوما ، ولا أن يلجأ أحدهم للاستغفار والضراعة والتوبة .

روى البخارى عن أنس ، قال : قال ﷺ : ((يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون : أنت الذى خلقك الله بيده فاشفع لنا ! فيقول لست هناكم . ويذكر خطيئته ويقول : ائتوا نوحا أول الرسل . وفى رواية فيقول : قد أخرجت بخطيئتى من الجنة ، وفى رواية : هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ؟ اذهبوا إلى نوح ! وفى رواية . أنه نهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى! ، فيأتون نوحا فيقول . لست هناكم . ويذكر خطيئته . ائتوا إبراهيم الذى اتخذه خليلا ! (وفى رواية ويذكر سؤال ربه ما ليس به علم – قال ابن حجر تعليقا على ذلك ، فخشى أن تكون الشفاعة لأهل الموقف من ذلك –) ... إلى أن قال فى الحديث : فيأتون موسى ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته (وفى رواية يقول إنى قتلت نفسا بغير نفس ، وأن يغفر لى اليوم حسبى) ...الخ)) .

وروى البخارى عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((قال سليمان بن داوود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن يأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه إن شاء الله ! فلم يقل : إن شاء الله ! فلم تحمل

منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون))

والحافظ ابن حجر يعلق على هذا الحديث بقوله : قال بعض السلف : نبه ﷺ بهذا الحديث على آفة التمنى والاعراض عن التفويض لذلك نسى سليمان الاستثناء ليمضى فيه القدر.. ثم قال : وكان سليمان عليه السلام نسى بعد تذكيره لشيء عرض له فشغله .

ورواية البخارى سواء عن طريق أنس أو أبى هريرة رضي الله عنهما تنبئ عن أن الأنبياء صلوات الله عليهم قبل نبينا محمد عليه السلام . كل منهم أحس فى نفسه بتقصير نتيجة خطأ فى الرأى أو نسيان منه أو أن ما أخبر به لم يتحقق . وذلك يدل بالتالى على أن الأنبياء بشر فحسب . إن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحى الإلهى جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادى . وجاز عليهم الخطأ فى الاجتهاد . كما يجوز عليهم النسيان . ويتولد عندهم الاحساس بالذنب والشعور بالملامة كما يتولد عند الإنسان العادى . وتتوق نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من الله جل شأنه وتزداد شوقا إلى ذلك أكثر من الإنسان العادى لما يتمتع الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته . ولو أن كل ما أتى به من قول أو فعل كان عن الله ولله لوجب أن يتحقق مضمون قوله ويتنزه عن الخطأ فعله حين القول والفعل أو بعد القول والفعل . وإلا كان فى رسالة الله ما لا يصح أن يكون لله الذى هو الحق منذ الأزل إلى الأبد "[١٠٧] .

- معصية .
- ذنب .
- خطيئة .

١٠٧- اجتهاد الرسول - فضيلة الشيخ - عبد الجليل شلبى - صفحة (٤٩) وما بعدها .

إذن حد النبوة لا يمنع أن تدخل فيه المعصية والذنب والخطيئة ! ولكن ينبغى أن ننتبه أن المعصية والذنب والخطيئة الصادرة من الأنبياء تتناسب ومكانهم ومقامهم . فليس معصيتهم كمعصية غيرهم من الناس . وكذلك الذنب والخطيئة . فقد يكون شيئا هينا على مستوى البشر العاديين . ولكن هذا الشيء الذى نعتبره هينا هو عظيم وكبير فى شأن الأنبياء . فليس معصية العالم فى الاعتبار كمعصية الجاهل . وليس ذنب العابد كذنب العاصى . وليس خطيئة المقربين كخطيئة المبعدين .

والمعصية والذنب والخطيئة دلائل إثبات وليس دلائل نفى . دلائل لاثبات أشياء منها :

- أنهم بشر .
- أنهم أحرار .
- أنهم مجتهدون .

فلم تخرج النبوة النبى من بشريته . بل هو يتمتع بكل ما يتمتع به، ويتصف بكل ما يتصف به الإنسان العادى إلا ما يتنافى مع مقام النبوة .وأنهم أحرار فى فكرهم وفى اختيارهم . فليس النبى شخص مقيد فى كل ما يفعله ويصدر عنه فهو يمارس كامل حريته فى قرارته واختياراته .

وهم مجتهدون . لديهم من الجراة والشجاعة والمواجهة أن يقولوا بأرائهم ويقدحوا زناد فكرهم . فهم ليسوا جامدين . ولم تجعلهم النبوة يلغون عقولهم وبشريتهم وحريتهم واجتهادهم . فإذا اندفعت بشريتهم . أو جرهم عقلهم أو شطح بهم فكرهم لما فيه تناقض للنبوة . كان هناك التنبيه والعتاب من الله كى يعودوا مستغفرين تائبين " وابن حزم فى كتابه ((الفصل فى الملل والأهواء والنحل)) يقول : ((قد يقع من الأنبياء قصد الشئ يريدون به وجه الله تعالى فيوافق خلاف مراد الله تعالى . وأنه تعالى لا يقرهم على شئ من هذا أصلا . بل ينبههم إلى ذلك

إثر وقوعه منهم ، ويظهر لعباده وربما عاتبهم علىَ ذلك بالكلام كما فعل مع نبينا ﷺ فى أمر ((زينب)) وقصة ابن أم مكتوم ، وربما عاتبهم ببعض المكروه فى الدنيا كالذى أصاب آدم ويونس عليهما السلام)) والأنبياء عليهم السلام بخلافنا فى هذا ، فإننا غير مؤاخذين بما قصدنا به وجه الله فلم يصادف مراده ، بل نحن مأجورون على هذا أجرا واحدا .

ثم ذكر عن آدم قوله تعالى ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ طه: ١٢١ وقوله ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ طه: ١٢٢

وشرح ذلك بأن التوبة لا تكون إلا من ذنب . ثم قال : وهذا وقع منه وعن قصد على خلاف ما أمر به متأولا فى ذلك ولا يدرى أنه عاص ، بل كان ظانا أن الأمر للندب مثلا أو النهى للكراهة . وهذا شئ يقع فيه العلماء والفقهاء كثيرا . وهذا هو الذى يقع من الأنبياء ويؤاخذون به إذا وقع منهم .

ثم قال : وقال تعالى لنوح :

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ هود: ٤٦

لأن نوحا ظن أن ابنه من أهله ، وأن المراد أهل القرابة . فلما علم أن هذا ليس مرادا ندم ، وليس هنا تعمد لمعصية وقال (الله) فى يونس :

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٧.

وقال الله لنبينا ﷺ : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ القلم: ٤٨.

ثم قال (صاحب الفصل) : إنه غاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله فعوقب بذلك وإن كان ظانا أن هذا ليس عليه فيه شئ . وهذا هو ما أراد الله من نبينا ﷺ حين نهاه عن مغاضبة قومه وأمره بالصبر على أذاهم . وأما أخبار الله

بأنه استحق الذم والملامة لولا النعمة التى تداركه بها للبث معاقبا فى بطن الحوت ، فهذا هو ما تقرر آنفا من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون فى الدنيا على ما فعلوه مما يظنونه خيرا إذ لم يوافق مراد الله ، وعلى هذا الوجه أقر ((يونس)) عليه السلام على نفسه بأنه كان من الظالمين "[١٠٨].

إذن النبوة لم تمح سمات الشخصية البشرية للرسول ، بل أكدت تلك الملامح والسمات ، وهم يخضعون ويتأثرون لما يخضع ويتأثر به الإنسان العادى ويفكرون ويتأملون كما يفعل القادة والمصلحون ، وتصادفهم العقبات والأزمات والمآزق ، ويعانون ويتألمون ، ويشعرون بالضيق والحرج ، ويحاولون من منطلق بشرى بحت أن يخرجوا من تلك المآزق والأزمات والمشاكل على قدر وسعهم . والفرق بين شخصياتهم - كأنبياء - وشخصيات غيرهم ، هو الثراء والغنى العارم فى الشخصية ، فهم طراز راق وسام وجليل ، صفات وسمات وخصائص تجمعت يساند بعضها بعضا ، ويقوى بعضها بعضا ، لتخرج فى النهاية شخصية كاملة ومكتملة تامة ومتممة ، وتحار أثناء دراستك لشخصياتهم أيمكن أن تشتمل الشخصية الإنسانية على كل تلك الخصائص والصفات والسمات ؟! وبهذا الرقى والسمو ؟.

النبوة تستفز وتستنفر وتبعث وتستنهض كل ما فى الشخصية الإنسانية من خفايا وكوامن ، إنها تصهرها لتجعلها تتألق وتشتعل بنار ونور مقدسة لتضئ العالم كله . مثل تلك الشخصية تأبى إلا أن تكون فى أعلى درجات الاجتهاد والتفكير والحرية والإقدام والشجاعة والجراة والمواجهة إنها خلقت إلا لتحرك العلم وتزلزله ، وتصدع أركان الظلم والباطل ، وتواجه عناد الظالمين والمشركين .

إنها ما خلقت إلا لتقطع أشواطا بعيدة فى مضمار العظمة والجلال .

١٠٨- المصدر السابق - صفحة (٣١) وما بعدها .

إنها ما خلقت إلا لتشهد لله عظيم قدرته وعلو إبداعه فى خلق الإنسان وإيداع جبلته تلك الطاقات والقدرات والإمكانات ؛ ليصل إلى الدرجات العلييات من الكمال .

ولعظيم دورهم ، وجليل مسئوليتهم كانوا فى المقدمة من إعمال العقل والاجتهاد . " وربما فى عيشهم وكفاحهم كانوا أحوج إلى الاجتهاد وإعمال العقل اكثر من غيرهم . لأن الأنبياء – وكذا المصلحون فى الجماعة – أشد الناس حاجة إلى قوة العقل ورجاحة الفكر وحسن التقدير عن طريق المران العقلى . لأن ما يصادفهم من مشاكل الحياة ويعترض طريقهم من صعاب يتطلب سرعة البت فى حل تلك المشاكل وإزالة هذه الصعاب والعقبات .

ولا يكفى فى سرعة البت هذه حسن استعداد المرء وصفاء عقله وسلامة فطرته . فكم فى الفيافى ورؤوس الجبال وبطون الأودية من خصوبة عقل وجودة طبع قضى عليها الكسل العقلى أو قلة الدربة فى معالجة الأمور .

ولأن الدربة العقلية ألزم للرسول – وكذا للمصلح – أكثر من غيره لا نجد بين من اختارهم الله لرسالته إلا من صهرهم الزمن وعركتهم الحوادث فجمعوا مع صفاء الطبع وعلو الأصل وغزارة العقل ، قوة الجلد ووفرة النصب والصبر على نوائب الدهر ومقارعة الخطوب "[١٠٩]

ونحن نؤكد على المفهوم الواقعى والحقيقى للنبوة ، محاولين تخليصها من معانى القداسة والغلو المبالغ ، حتى أن البعض يخلع عليها صفات العصمة المطلقة وبهذا تقترب شخصيات الأنبياء من الذات العليا اقترابا شديدا ، ويشركون الأنبياء مع بعض ما تتصف به الذات العليا من كمال مطلق ، وقد حدث هذا مع بعضهم ، مع أنهم أول شئ يعترفون به ويقرون به أنهم عباد مخلصون لله الواحد الأحد ، وهم أول من يوحدونه وينفون عنه الشريك والصاحب والولد .

١٠٩- المصدر السابق – صفحة (٢١) وما بعدها .